﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ ٤٤﴾ [سبأ: 44]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ادِّعـاءاتُ أهلِ الـشِّـرْكِ عـاريـةٌ عن الأدلَّة

لمّا ذكرَ الله تعالى ما ألقاهُ الكافرون مِنْ سهام شكوكِهم على نور الإسلام، ووصفوا ما جاء به النَّبيُّ ﷺ بالسِّحر الظَّاهر؛ ردَّ الله تعالى عليهم مبطلًا ادِّعاءهم، وكشف زيف اعتقادِهم، فكيف يزعمون أنَّ دينَهم هو الدّين الحقُّ، و"من أين كذَّبوا بك، ولم يأتِهم كتاب، ولا نذير بهذا"[1]، وأنَّه تعالى ما أنزل عليهم من كتابٍ قبل القرآن يقرِّر لهم دينًا، ولا أرسل رسولًا يدعوهم إلى الحقِّ، والدّين الصَّحيح لا يُعرف إلّا بوحيٍ مِنَ الله سبحانه؛ فثبت عندئذٍ أنَّ دعواهم ما هي إلّا أوهامٌ باطلةٌ، لا تستندُ إلى أيَّة حجَّة عقليَّة أو شرعيَّة.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كُتُبٖ﴾: (كتب) تدلُّ تصريفاتُه على جمعِ الشَّيءِ إلى الشَّيء، و"ضمُّ الحروف بعضُها إلى بعضٍ بالخطِّ، وقد يقال ذلك للمضموم بعضُها إلى بعضٍ باللَّفظ، فالأصلُ في الكتابة النَّظمُ بالخطِّ، لكن يُستعار كلُّ واحدٍ للآخر"[2]، وقد يُقال: الكتابُ، ويُراد به المكتوبُ، مِن إطلاق المصدرِ وإرادة اسم المفعول، مثل الفراشِ، بمعنى: المفروش، فالكتابُ هو الصَّحيفةُ الَّتي كَتَبَ فيها[3]، ويأتي (الكتاب) في القرآن الكريم على أحدَ عشرَ وجهًا[4]، ومعنى الكُتُبِ في الآية: الكُتُبُ المنزَّلة مِنْ عند الله تعالى.

(1) الفراء، معاني القرآن: 2/ 364.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (كتب).
(3) نصر الهوريني، المطالع النّصرية، ص: 41.
(4) ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 526 - 527.

2) ﴿نَّذِيرٍ﴾: (نذر) تدلُّ تصريفاتُه على التَّخويفِ أو التَّخوُّف، ويكاد أن يكونَ منحصرًا في التَّخويف[1]، والمعنى العامُّ له ما يكون مِن إخبارٍ مشتمِلٍ على التَّخويف، مثلما يشتمل التَّبشيرُ على السُّرور[2]، والإنذارُ: "الإعلامُ بالشَّيء الذي يحذر منه، وكلُّ منذرٍ: مُعلِمٌ، وليس كلُّ مُعلِمٍ منذِرًا"[3]، ومعنى النَّذيرِ في الآية: هو الَّذي يُخوِّفُ مِنَ العقاب على ترك الشَّرْعِ والتَّفريط فيه[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تـــاهـــوا في الـظُّـلـمـات من غـيرِ كـتـابٍ ولا نذيرٍ، فجاءهم الـرَّسـولُ هاديًا وبشيرًا

ما دام قدِ انتفى عنهم الكتابُ السّامي والنَّبيُّ الهادي؛ فإنَّهم كالعميانِ في ظلمات اللَّيل، لا يرونَ سوى ما يخطرُ ببالهم، ولا يسمعونَ إلّا ما يريدونَ، وليس لديهم دليلٌ يثبتُ صحَّة أقوالهم، ولا نذيرٌ يرشدُهم إلى طريق الحقِّ، ويشهد بما يزعمونَ، فهُم محتاجون إلى مَن يعلِّمهم، فبعثَ اللهُ تعالى إليهم محمَّدًا ﷺ، ليخرجَهم من الظُّلمات إلى النّور، ومن الضَّلال إلى الهدى، وقصدًا إلى إثبات نبوَّته[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم﴾:

مِن أدلَّةِ حمقِهم إنكارُهم الرِّسالةَ مِـن غـير كـتـابٍ يُهتَدى به

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ دالَّةٌ على الحال[6]، فالجملةُ في موضع الحال مِن قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾، وفي ذلك إيذانٌ بحماقتِهم بدافع جهلِهم، وتعجيبٌ من حالهم[7]، فكيف

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (نذر).
(2) الراغب، المفردات: (نذر).
(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نذر).
(4) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 8/ 337.
(5) السيوطي، معترك الأقران: 2/ 410.
(6) الهرري، حدائق الروح والريحان: 23/ 323.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 227 - 228.

ينكرونَ رسالتَهُ ﷺ، ولم يكن معهم مِن كُتُبٍ يدرسونها، ولا دينٍ يهتدون به.

انتفاءُ إيتائِهم كتبًا إلهيَّةً

ويجوز في الواو أن تكونَ عاطفةً[1]، فتكون قد عطفَت جملةَ نفي إيتائِهم الكُتُبَ السَّماويَّة الهادية التي يدرسونها، ويتعلَّمون منها دينَهم على جملةِ إنكارِهم رسالة الرَّسول ﷺ، واتِّهامهم إيّاه بالسِّحر المبين.

استئنافُ كلامٍ جديد إشارةٌ إلى أهمّيّته

ويجوزُ في الواو أن تكون استئنافيَّةً[2]، فإنَّه لَمّا ذكرَ مقالةَ السّوء منهم بإنكار الرِّسالة المحمَّديَّة، ورميها بالسِّحر المبين؛ ابتدأ كلامًا جديدًا في إشارة إلى أهمّيَّته، فقطعَهُ عمّا سبقَهُ مِن كلام في أنَّ الله ﷻ ما آتاهم مِنْ كُتُبٍ مشتملة على صحَّة ما يدَّعون مِنَ الإشراك بالله تعالى[3]، وما أنزل عليهم مِنْ وحْيٍ ليتمسَّكوا به، ويتردَّدوا في قَبول دين جديدٍ يخشون على أنفسِهم مِن ضلالِه.

دلالةُ الحال في جملة ﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم﴾:

التَّعجيبُ مِن رفضهم الحقَّ

لَمّا أنكروا رسالتَهُ ﷺ فيما تقدَّم؛ أورد قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ﴾؛ تعجيبًا من حالهم، فلا هدًى يهتدونَ بهِ، ولا مِن دينٍ يؤمنون به، حتّى يكونَ تمسُّكهم به دِرءًا لوقوعِهم في الضَّلال؛ إن فرَّطوا فيه، فمعنى الحال: إظهارُ العَجَبِ مِن رفْضِهم الحقَّ الرَّبّانيَّ؛ إذ لا مانعَ يمنعُهم، ولا صادَّ يصدُّهم عن قَبوله[4].

دلالةُ (ما) في قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم﴾:

شناعةُ تكذيبِهم من غير مستَنَدٍ

(ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ﴾ دالَّةٌ على النَّفي[5]، فإنَّهم قد كذَّبوا الرَّسول ﷺ، ورموه بالسِّحر، فهلّا

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 23/ 323، والدعاس، إعراب القرآن: 3/ 73.
(2) الخراط، المجتبى في مشكل إعراب القرآن: 3/ 994.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 589.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 228.
(5) الواحدي، التفسير البسيط: 18/ 453.

بيَّنوا مِن أين جاء تكذيبُهم ذاك، ولم يأتِهم كتابٌ قبل ذلك، وما أرسلنا لهم من نذيرٍ؟[1].

و(ما) النّافيةُ مُؤذِنَةٌ بأنَّ فيها إقرارًا مِنْهُم بالشِّرك والكفر وإباحتِهِ[2]، والتَّمسُّك به، وهم يعلمونَ بطلانه، وعلى انتفاء وجودِ أيِّ كتابٍ سماويٍّ أُنزِلَ على المشركين يدعوهم إلى الشِّركِ والكفر.

دلالةُ التَّعبيرِ بالإيتاء في ﴿ءَاتَيْنَٰهُم﴾:

في الإيتاءِ دليلُ السَّهولةِ والعظمَةِ

استُعْمِلَ فعلُ الإيتاء دون فعلِ الإعطاءِ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾؛ لأنَّ الإيتاءَ يعبِّر عن المجيء بسهولةٍ ويسرٍ من غيرِ مشقَّةٍ ولا كلفة[3]، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ الكُتُبَ السَّماويَّة تأتي إلى النّاس بسهولةٍ ويُسرٍ، من غير جُهدٍ منهم، وفيه إيماءٌ إلى عظمَةِ ما ينزل مِنَ الكُتُبِ السَّماويَّةِ؛ لأنَّ الإيتاءَ يُستعمَلُ في المعظَّماتِ غالبًا.

لطيفةُ إسنادِ الإيتاءِ إلى ضمير العظمةِ:

عظمةُ مقاماتِ أصولِ الدّيانة

أُسنِدَ فعلُ الإيتاء إلى الضَّمير (نا) الدّال على العظمة الإلهيَّة في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم﴾؛ للإيماء إلى أنَّ هذا المقامَ مقامٌ عَظيمٌ وخَطِرٌ؛ لتعلُّقه بأصل الدّين وقوامه، فلا يُرْتَضى فيه إلّا بخطبٍ جللٍ خطير، وأمر عظيمٍ كبيرٍ[4]، فلا يتحقَّق إلّا بإرادةٍ إلهيَّةٍ قويَّة.

معنى ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن كُتُبٍ﴾:

التَّأكيدُ على خلوِّهم مِن كُتُبٍ سماويَّةٍ تؤيِّد باطلَهُم

القياسُ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ﴾ أن يُعدّى فعلُ الإيتاءِ إلى مفعوله الثّاني بنفسه، فيقال: (وما آتيناهم كُتُبًا)، غير أنَّه لمّا أرادَ توكيدَ النَّفي؛ أوردَ حرفَ الجرِّ ﴿مِّن﴾[5]؛ تأكيدًا على

(1) الفراء، معاني القرآن: 2/ 364.
(2) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 22/ 87.
(3) الراغب، المفردات، ص: 60.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 526.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 526.

انتفاءِ وجودِ الكُتُبِ السَّماويَّة لهؤلاءِ القومِ، ممّا يزيدُ مِن قوَّة النَّفي، ويؤكِّد أنَّهم لم يكونوا على حقٍّ في ادِّعاءاتهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالكتاب في: ﴿مِّن كُتُبٍ﴾:

كان الأجدرُ بهم الفرحَ بالحقِّ النّازِلِ

لَمّا كانت الآيةُ نازلةً في مشركي العرب، وكانتِ العربُ أُمَّةً أمّيَّةً؛ عُبِّرَ بنفي الكتاب عنهم في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ﴾؛ إذ وردَ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «إنّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، لا نَكْتُبُ، ولا نَحْسُبُ»[1]، فكان نزولُ القرآن الكريم عليهم من أكبرِ المعجزاتِ المحمَّديَّة، وكان الأليقُ بهم أن يفرحوا بما أنزلَ عليهم مِن كتابٍ ساواهُم بالأممِ الَّتي نزلت عليها الكُتُبُ السَّماويَّة[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالدِّراسة:

مُسارعَتُهم إلى التَّكذيب قبل التَّأمُّل

في قوله تعالى: ﴿يَدۡرُسُونَهَاۖ﴾ استُعمِلَ فعلُ الدِّراسة، ومعناها: القراءة مع التُّؤدَةِ والتَّفهُّم، ويكون ذلك مع الإعادةِ والتَّكرير، فإنَّ الدَّرْسَ في لغة العربِ يدور حول دلالةِ التَّأثُّر بموجب تكرارِ العمل، ومنه الطَّريقُ الدّارس الذي ذهبتْ آثارُهُ مِن كثرة سلوكِه، فلم يعد يتبيَّن، ومنه دراسةُ الكتابِ، أي: قراءته بتمهُّل وتكرار لحفظه وتدبُّرِه، فالدِّراسة أخصُّ من القراءة؛ لأنَّ الدِّراسة تستلزم التَّمكُّن مِنَ المفعول[3]، واستعملَ فعلَ الدِّراسة هنا؛ لأنَّ فهْمَ مرادِ اللّه تعالى لا يتأتّى لهم إلّا عن تَكرار وفهْمٍ وتدبُّرٍ، فكيف يكذِّبون الرَّسول، ولم يكن منهم ذلك في الأصل؟ وزادَ تقويةَ هذه الدِّلالَةِ صوغُ الفِعْلِ مُضارِعًا.

توبيخُهم على عدَمِ بحثِهم عن الحقِّ

ويجوز أن يكونَ التَّعبيرُ بالدِّراسة قيدًا في النَّفي، فيكونَ مِن قبيل قولك: ما عندي من كتابٍ يُقرَأُ، فالمقصدُ نفْيُ القراءةِ وحدَها،

(1) رواه البخاري في صحيحه، الحديث رقم: 1924.
(2) العثيمين، تفسير القرآن الكريم (سورة سبأ): 271.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/ 295، و22/ 228.

مع أنَّ عندك كتابًا إلّا أنَّك لا تقرأ فيه[1]، وفي هذا التَّعبيرِ توبيخٌ شديد لهم في امتلاكِهم الكُتُبَ إلّا أنَّهم لا يقرؤونها، ومِن المتقرَّر أنَّ وجودَ الكُتُبِ لا يستلزمُ الانتفاعَ بها؛ إن لم تُباشَرْ بالدَّرس والنَّظر والقراءة، وإلّا كان وجودُها كعدمها[2].

معنى (الواو) في: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ﴾:

انتفاءُ إنزالِ الكُتُبِ عليهم وإرسالِ النُّذر إليهم

عُطِفَ بالواو[3] قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ﴾ على ما سبق من قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ﴾، وفائدةُ العطف هنا: التَّعقيبُ والتَّأكيد في انتفاء حصولِ هؤلاءِ على أيِّ دليلٍ منه تعالى، ذلك "أنَّهم قومٌ جهّال أُمّيّون لا كتابَ لهم ولا نبيًّا، نشؤوا على طباعِهم الجاسية في الجاهلية، لا تثبَّت لهم بوجهٍ، ولا تمسَّك بشبهةٍ"[4].

دلالة تكرار (ما) في قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ﴾:

توكيدُ النَّفي وتفصيلُ الأدلَّة

كرَّر (ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ﴾؛ لإفادة توكيدِ النَّفي، وفصل إيتائِهم الكُتُبَ عن إرسال النَّذير إليهم[5]، فهذا التَّكرارُ والتَّوكيدُ يعزِّز في نفس السّامع أو القارئ يقينًا بأنَّ هؤلاءِ القومَ لم يصلْ إليهم أيُّ دليل، ثمَّ يُفصِّل في هذا الدَّليل، وهي الكُتُبُ السَّماويَّة والرُّسلُ المنذرونَ.

دلالةُ الإسنادِ في ﴿أَرۡسَلۡنَآ﴾:

مظهَرُ العظمةِ الإلهيَّة في إرسالِ الكُتُبِ

أُسْنِدَ فعلُ الإرسال إلى ضمير الجمع العائد عليه ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ﴾، أي: لم نرسِل بما لنا مِنَ العظَمَةِ إرسالًا لا شبهة فيه[6]، ممّا يزيد مِن قوَّة التَّأكيد على حقيقة الرِّسالة.

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 12/ 575.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 322.
(3) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 620.
(4) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 8/ 337.
(5) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 22/ 87.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 527.

معنى (إلى) ومرجع الضَّمير ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾:

لم يُرسِلِ اللهُ الرُّسُلَ للدَّعوة إلى الشِّرْكِ، بل للتَّحذير مِنْهُ

الأصلُ في معنى حرف الجرِّ (إلى) في كلام العرب أن يدلَّ على انتهاءِ الغاية[1]، وقد استعملَهُ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ﴾ بمعنى التَّوجيه والتَّخصيص، فهو يشير إلى أنَّ ذلك الإرسالَ ما كان موجَّهًا إلى أولئك القوم، وهم أهلُ مكَّةَ الذين لم يؤمنوا، وأنَّه ما أُرسل لهم نذيرًا يدعوهم إلى الشِّرك، ويخوِّفهم عذابَهُ على أن تركوه[2].

نكتةُ التَّقديم في الآية:

نفيُ تخصيصِ المخاطَبين بإرسال النَّذير إليهم

في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ﴾ قدِّم الجارُّ والمجرور ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾ على ﴿قَبۡلَكَ﴾، وقُدِّما على ﴿مِن نَّذِيرٖ﴾، وفي ذلك نفْيُ تخصيصِ المخاطَبين بإرسال النَّذير، وفيه أيضًا تأكيدٌ على عدم إرسال أيِّ نبيٍّ إليهم قبلَ النَّبيِّ محمَّد ﷺ.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿قَبۡلَكَ﴾:

نفْيُ أن يكونَ في الرِّسالة الإلهيَّةِ باطلٌ

معنى القبليَّة في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ﴾: الزَّمانُ المنصرمُ الَّذي يسبق رسالتَكَ الجامعة لكلِّ رسالة، ويجوز أن يُرادَ نفْيُ الإرسال بهذا الباطل باستغراق جميع الزَّمان الماضي[3].

نكتةُ عدمِ التَّقييد في الآية:

الإيتاءُ تمكينٌ فأُطْلِقَ لانتفائه عنهم

في ذِكر فعلِ الإيتاءِ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم﴾ وردَ مطلقًا من غيرِ تقييدٍ بالظَّرف، فلمّا ذُكِرَ فعلُ الإرسالِ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ﴾؛ قُيِّدَ بالظَّرف، "وإنَّما لم يُقيَّد إيتاءُ الكُتُبِ بقيدٍ، كما قُيِّدَ الإرسال بقوله: ﴿قَبۡلَكَ﴾؛ لأنَّ الإيتاءَ هو التَّمكين من الشَّيء، وهم لم يتمكَّنوا مِنَ القرآن، بخلاف إرسالِ النَّذير، فهو حاصلٌ، سواءٌ تقبَّلوه، أم أعرضوا عنه"[4].

(1) الزمخشري، المفصل، ص: 380.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 326.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 527.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 228.

معنى ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن نَّذِيرٍ﴾:

لم يرسلِ اللهُ تعالى إليهم قبلُ نذيرًا البتَّة

الأصلُ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ﴾: (وما أرسلنا إليهم قبلَكَ نذيرًا)؛ ليتعدّى فعلُ الإرسال بنفسِه، لكنَّه لَمّا أرادَ توكيدَ نفي إرسال النَّذيرِ استعملَ حرفَ الجرِّ ﴿مِن﴾؛ ليدُلَّ على النَّصِّ في الاستغراق والتَّأكيد[1]، فهو نفيٌ مؤكَّد في أنَّ الله ﷻ لم يرسل لهم نذيرًا البتَّة[2].

نكتةُ صَوْغ ﴿نَّذِيرٍ﴾ على (فَعيل):

المبالغةُ في شدَّة الإنذار

﴿نَّذِيرٍ﴾ في الآية على وزن (فَعيل)، وهو صيغةُ مبالغةٍ[3]، وأوردَ هنا بهذه الصّيغةِ؛ ليدلَّ على شدَّة الإنذارِ ووضوحه، وكأنَّ الله سبحانه يخبرنا بأنَّ الرُّسلَ لم يكونوا مجرَّد مبشِّرين، بل كانوا يحملون إنذارًا شديدًا، وعقابًا أليمًا لمَنْ لم يؤمن، وأنَّهم كانوا يدعونهم إلى الحقِّ والإيمان، وينذرونهم بالعذاب[4] وسوء المصير، ويحذِّرونَهُم مِن عواقبِ كُفْرِهم وعصيانهم.

دلالةُ الخَبَر في الآيَةِ:

التَّعجيبُ من رفْضِهم اتِّباعَ الرَّسول والقرآن

الجملةُ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ﴾ جملةٌ خبريَّةٌ، والمرادُ بها الدِّلالةُ على تحميقِهم لفرط جَهالَتِهم، والتَّعجيب من غرابةِ حالهم؛ فإنَّهم لم يدركوا أنَّ ما جاء إليهم مِنَ الحقِّ فضلٌ من الله تعالى يؤهِّلهم في أن يكونوا في عدادِ أهلِ الكتاب مِنَ الأمم، فيبلغوا مبلغَ أهلِ العلم؛ إذ لم يسبق أن جاءهم رسولٌ، أو أُنزِلَ عليهم كتابٌ، فلمّا رفضوا اتِّباع الرَّسول، والإيمان بالقرآن، وكان حريًّا بهم الاغتباطُ بذلك؛ دلَّ ذلك كلُّه منهم على جهالتِهم المفضيةِ إلى حماقتِهم، وكان أخلقُ ممَّن رآهم أن يتعجَّب من حالهم[5].

(1) ابن الأثير، البديع في علم العربية: 1/ 246.
(2) إسماعيل حقي، روح البيان: 7/ 205.
(3) ابن عقيل، المساعد على تسهيل الفوائد: 1/ 479.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 382.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 228.

إعراضُهم عن الخير الذي ساقه الله تعالى لهم

ولمّا كان هؤلاء المخاطَبون في فقرٍ عقليٍّ وعوزٍ روحيٍّ؛ كانوا لذلك مِن أشدِّ النّاس احتياجًا إلى ما ساقَهُ لهم اللّهُ سبحانه مِنَ الخيرِ على يد الرَّسول الكريم ﷺ، فأصبحوا أهلَ علمٍ شأنُهم شأنُ غيرهم مِنَ الأمم[1]، فكان الخليقُ بهم الرِّضا بذلك، وشكْرُ المنعِم على ما أنعمَ، فلمّا رفضوا ذلك كلَّه؛ حُقَّ لمن رأى حالَهُم أن يتعجَّب مِن حماقتهم، ويندهشَ من غبائِهم.

فائدةُ تذييلِ الآية بنَفْي إرسالِ النَّذير:

تسفيهُ رأيهم لذهابِهم مذهبًا زائغًا

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ﴾ تذييلٌ للآية، غرضُهُ تجهيلُ أمرِهم وتسفيهُ رأيهم لمّا ذهبوا ذلك المذهبَ الزّائغ[2]؛ فإنَّ اللّه ﷻ لم يُرْسِل إليهم نذيرًا يدعوهم، وينذرهم بالعقاب؛ إن لم يشركوا[3].

دلالةُ الجمعِ بين إيتاء الكُتُبِ وإرسال النُّذر:

صدَّ اللهُ تعالى أبوابَ الطَّعْنِ في الشَّريعة

بين قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ﴾ مناسبةٌ لطيفة، غرضُها صدُّ الأبواب التي يمكن أن ينفذوا منها للطَّعنِ في القرآن والرَّسول ﷺ، فقد نفى عنهم إرسالَ الكُتُبِ التي يدرسونها بأنفسِهم، ولا أرسلَ لهم نذيرًا يشافههم بشيءٍ، أو يباشرُ أهل عصرِهم[4]، فقابلَ ما بين الكُتُبِ المدروسة والنُّذر المشافِهة.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإيتاء والإعطاء:

الإيتاءُ في الاستعمال القُرآنيّ يَرِدُ للشَّيءِ الكثير والأَمْرِ العَظيمِ

حاصِلُ التَّفريقِ راجعٌ إلى ثلاثة أوجهٍ[5]:

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 11/ 835.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 138.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 589.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 424.
(5) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 87، وأبو البقاء الكفويّ، الكلّيّات، ص: 212.

أحدُها: أنَّ الإيتاءَ لا مُطاوعَ لِفعْلِه، فتقول: آتاني شيئًا، فأخذتُه، بخلاف الإعطاءِ فإنَّ له مطاوعًا، فتقول: أعاطني شيئًا، فعطَوْتُهُ، ويترتَّب على هذا أنَّ الإيتاء أقوى مِنَ الإعطاء؛ لأنَّ المتقرِّرَ أنَّ ما له مطاوعٌ مِنَ الأفعال أَضْعفُ في إثبات مَفْعوله مِمّا لا مطاوِعَ له.

ثانيها: أنَّ الإيتاءَ يُستعمَلُ غالبًا فيما له ثباتٌ وقرارٌ، بخلاف الإعطاء، فإنَّ الغالبَ استعمالُهُ فيما يَنتقِلُ مِنْهُ بعد قضاء الأَرَبِ منهُ.

ثالثها: أنَّ في الإعطاء دليلًا على التَّمَلُّكِ بخلاف الإيتاء.

وأمّا في خصوصِ الاستعمال القُرآنيِّ للفظتَي (الإيتاء) و(الإعطاء)؛ فإنَّ بينَهُما فرقًا مِن جِهَتَيْنِ[1]:

إحداهما: أنَّ الإيتاءَ لَم يُستعمَلْ إلّا للشَّيء الكثير والعظيم الشَّأْنِ، كالقرآنِ الكريم، والتَّوراة، والمُلْكِ، والرَّحمة، بخلاف الإعطاء؛ فإنَّهُ يُستعمَلُ للشَّيء القليل، ولم يَرِد الإعطاءُ مرادًا به الشَّيءُ الكثيرُ إلّا بقيد ما يدلُّ على الكثرة.

الأُخرى: أنَّ الإيتاءَ إذا صدَرَ مِنَ العبد يكون عن طيب نفسٍ، بخلاف الإعطاء؛ فهو مُطْلَقٌ.

الإرسال والبعث:

البعثُ أكثر معاني مِنَ الإرسال

ذَكَرَ ابنُ فَوْرَكٍ أنَّهما بمعنًى[2]، وقال ذلك جماعةٌ في سياقِ بَيانِهم مَعْنى إحدى اللَّفظتَيْنِ؛ فإنَّهُم يُفَسِّرونها بالأخرى[3]، كقول ابنِ جَريرٍ: "قوله: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا﴾ [القمر: 19]، يقولُ تعالى ذِكْرُهُ: إنّا بَعَثْنا على عادٍ؛ إذ تمادوا في طُغْيانهم وكُفْرِهم باللّه ريحًا صَرْصَرًا"[4].

(1) محمّد محمَّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 27 - 29.
(2) ابن فورك، تفسير ابن فورك: 1/ 221.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 470، و19/ 293، والواحدي، التفسير البسيط: 2/ 542، والماوردي، النكت والعيون: 1/ 123، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 127، والشنقيطي، العذب النمير: 4/ 59.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 22/ 132.

بل مِنَ العلماءِ مَنِ استدلَّ على مجيء البَعْثِ بمعنى التَّخْليَةِ بمجيء الإرسال لذلك المعنى[1]، فكأنَّهُ أعطى للبعث جميعَ ما للإرسال من المعاني.

وفرَّق بينهما جماعةٌ، منهم أبو هِلالٍ، فقال في الفُروقِ: "يَجوزُ أَنْ يبْعَثَ الرَّجلُ إلى الآخر لحاجةٍ تَخُصُّهُ دونك ودون المبعوثِ إليه، كالصَّبيِّ تَبْعَثُهُ إلى المكتب، فتقولُ: بَعَثْتُهُ، ولا تقولُ: أرسلْتُهُ؛ لأنَّ الإرسالَ لا يكونُ إلّا برسالةٍ وما يَجْري مَجْراها"[2].

وهذا الفَرْقُ قد تُشْكِلُ عليه آياتُ إرْسالِ الرّياحِ، كما هو ظاهِرٌ، إلّا إن قيلَ: إنَّ إرْسالَ الرّياح يكونُ برسالةٍ يُفْهِمُها اللّهُ تَعالى إيّاها، ويُفْهِمُها الأرضَ المَيْتةَ، ولكنَّ هذا مِنَ الغيبِ الذي لا يُمكنُ الجراءةُ عليه إلّا بِدَليلٍ مِنَ الشَّرْعِ.

وفرَّق بعضُ أهل العِلم بينَهُما مِن وجهٍ آخَرَ، وهو أنَّ الإرْسالَ أَخَصُّ مِنَ البعثِ، مِنْ جهة أنَّ "الإرسالَ يُفيدُ معنى البَعْثِ مع العُلوِّ"[3].

وفي تفسير المَنار تَقْريرٌ للفرق مِنْ جهة أخرى، وهو أَنَّ البعثَ أَبْلَغُ مِنَ الإرْسالِ؛ "لأنَّهُ يُفيدُ معنى الإثارةِ والإزعاجِ إلى الشَّيْءِ المُهِمِّ، ولم يُذْكَرْ في القرآنِ إلّا في بعث المَوْتى، وفي الرِّسالَةِ العامَّةِ، أي: بَعْثُ عِدَّةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وفي بِعْثَةِ نَبيِّنا وموسى خاصَّةً، وكذا في بعثِ نُقَباءِ بني إسرائيلَ، وبَعْثِ مَنِ انتقمَ مِنْهُم، وعذَّبَهُم، وسَباهُم حينَ أَفْسَدوا في الأرض"[4].

وَيُشْكِلُ عليه ذِكْرُ إرسال الرّيحِ لِلعذاب في مَواضِعَ مِنَ القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ [الإسراء: 69]، وقوله: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾﴾ [الذاريات: 41]، ولم يُسْتَعْمَلْ معهُ البعثُ.

وأظْهَرُ مِنْ هذا كُلِّه ما ذَكَرَهُ ابنُ الزُّبير الغرناطيُّ مِن أنَّ الفعلَ (أرسل) أَخصُّ في باب الإرسالِ مِنَ البَعثِ؛ "إذْ لا يُقالُ: أَرْسَلَ، إلّا فيما كانَ تَوْجيهًا، فيهِ معنى الانتقال حقيقةً أو مَجازًا، أَمّا (بَعَثَ)؛ فأوسَعُ، فإنَّه يقعُ بمعنى الإرسالِ، وبمعنى الإحياءِ، ومنه: البَعْثُ الأُخْراويُّ"[5].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/ 394.
(2) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 289، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 9/ 176.
(3) النيسابوري، غرائب القرآن: 3/ 302.
(4) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 9/ 34.
(5) الغرناطي، ملاك التأويل: 1/ 216.

وَبِناءً عليه؛ فالبَعْثُ أَكْثَرُ مَعانيَ مِنَ الإرسال، فيلتقيانِ في معنًى، وينفردُ البعثُ بمعنًى آخَرَ، وإذا جُمِعَ بينهما بمعنًى يُرادُ بِهِ التَّنْويعُ في العبارة والتَّفَنُّنُ فيها.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والأربعون،
سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والأربعون، سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 46 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-99-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 46 : المجلد السادس والأربعون، سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-99-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0986397 بتاريخ 2025/01/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»